الدعوة إلى الله تعالى(١)

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

الدعوة إلى الله تعالى أشرف الأعمال وأزكى الخصال، وكفى بها فضلًا أنها وظيفة الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، ووظيفة الذين أورثهم الله علمهم واتباع سنتهم.

ومن أجل الدعوة إلى الله أنزلت الكتب وبعثت الرسل وكتب الجهاد وخلقت الجنة والنار وكان الموت والحياة، والدنيا والآخرة، والأرض والسموات.

لم يكن الله تعالى ليخفى على ذوي البصائر والعقول حتى يحتاج الناس إلى من يعرفهم به، ولا ليقيم الدليل على وجوده لولا ذلك الشيطان الرجيم الذي اجتالهم عن فطرتهم ولولا تلك الشهوات التي ركبت فيهم فحجبت بصائرهم ورانت على قلوبهم، وما كان لعبيد أذلاء فقراء أن يعصوا سيدهم ومليكهم ويتمردوا على أوامره وكتبه، وهو يحسن إليهم وينعم عليهم لولا الأمل الكاذب والجهل المركب والاغترار بالدنيا وزينتها وظنهم الخاطئ أن لن يبعث الله أحدًا.

(١) مجلة الإصلاح – العدد الأول– ١٥/ ٢/ ١٣٤٧هـ.

ففطرة الله التي فطر الناس عليها هي معرفة ربهم والإذعان له جل شأنه بالعبودية.

ولكن لما كانت هذه الصوارف التي قدمنا ذكرها من أعظم ما يحول بين المرء وسعادته ويصرفه عن التفكير في عاقبة أمره اقتضت الحكمة الإلهية أن يرسل الله لعباده رسلًا منهم يبصرونهم بها ويحذرونهم منها ويخوفونهم عاقبة الركون إليها ويدعونهم إلى ربهم الذي تشهد بوجوده وربوبيته فطرهم ووجداناتهم فضلًا عن آياته الكونية الماثلة لأعينهم والتي تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم وتملأ أسماعهم وأبصارهم، ما بين مضيئة مشرقة، ومظلمة دامسة، وجامدة شامخة، ومتحركة متلاطمة، تملأ القلب روعة وجلالًا والعين بهجة وجمالًا.

بعث الله رسله إلى عباده يدعونهم إليه، ويذكرونهم بنعمه لديه، وإحسانه إليهم. مبينين لهم عن ربهم ما يحتاجون إليه في سعادتهم الدنيوية والآخروية.

قائلين لهم: اعبدوا الله وحده لا إله إلا هو ولا يستحق العبادة سواه، ضاربين لهم الأمثال، مالئين أسماعهم بالمواعظ، مجلين لهم العبر في أجلى مظاهرها، مطلعين عليهم شمس الحجج في رابعة نهارها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

الدعاة قسمان: قسم يدعو إلى الرحمن وقسم يدعو إلى الشيطان:

فدعاة الرحمن هم أنبياء الله ورسله وأولياؤه الصالحون.

والدعاة إلى الشيطان هم الجهلة الضالون الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون.

ينبغي أن نزيدك بيانًا وننعت لك كل قسم حتى كأنك تراه؛ لعل الله أن ينير بصيرتك ويجعلك من الداعين والمرشدين إلى سبيله:

الدعاة إلى الله قوم عرفوا أنفسهم أنهم عبيد لربهم فآمنوا به وأحبوه وعظموه، وعرفوا أنه هو المستحق للعبادة، ورأوا كثيرًا من إخوانهم في الإنسانية غارقًا في بحر الهوى والضلال يخضع لغير الله ويذل لسواه، فخلعوا ثياب رفاهيتهم عنهم وألقوا بأنفسهم في تلك الأمواج المتلاطمة لينتشلوا أولئك الغرقى وقد مدوا إليهم حبل النجاة، فمنهم من اعتصم به فنجا ومنهم من أبى فكان من الهالكين.

جاءوا إلى عبدة القبور حيث يذبحون عندها ويدعون أصحابها وينذرون لهم ويهتفون باسمهم في الشدة والرخاء فقالوا لهم: مهلًا مهلًا: كيف تدعون من لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنكم شيئًا؟ أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقوله جل جلاله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وهذا تهكم بالداعين غير الله تعالى وقد نهى تعالى عن دعاء غيره فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

ثم إن ذبحكم ونذركم لأصحاب القبور عبادة أيضًا لا تنبغي إلا لله الذي خلقكم ورزقكم، فهو سبحانه أحق بأن يكون هذا كله لوجهه تعالى، يا قوم إن الله الذي خلقكم ورزقكم هو المستحق لعبادتكم فادعوه وحده وتوكلوا عليه وحده، وخافوه ولا تخافوا غيره، الله هو الذي يجيب دعاء المضطر منكم إذا دعاه ويكشف السوء ويقضي لكم جميع حاجاتكم؛ لأنه حي يسمع ويبصر ويعلم وهو على كل شيء قدير.

أما الذين تدعونهم فليسوا بأحياء ولا يسمعون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

يا قومنا أرأيتم لو كان لأحدكم عبد أو خادم وكلفه أن يعمل في حديقته أو مزرعته وتكفل له بطعامه وكسوته وكل ما يحتاجه في معاشه، ووعده أجرًا جزيلًا إن هو أحسن الخدمة ونصح لسيده في المهنة، ثم ذهب هذا الخادم يعمل في مزرعة عدو سيده وهو لم يزل في نعمة السيد متقلبًا وفي كنف إحسانه مقيمًا ماذا تحكمون على ذلك الخادم؟ وماذا يستحق عندكم من العقاب؟.

لا شك أنكم تقولون إنه يستحق التأديب والتعذيب.

فهذا مثل المشرك كلفه الله تعالى بعبادته وتكفل له برزقه فذهب يعبد الشيطان ويطيعه ويعصى ربه ويكفر نعمته ويجحد إحسانه.

هكذا بمثله يدعو الدعاة إلى الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

الدعوة إلى الله سبيل الفلاح ومفتاح النجاح، وباب العز وأصل الاستقلال والحرية، وأشرف ما تنفق فيه النفوس والأموال ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فمن أقام هذه الدعوة وبذل فيها نفسه وماله عاش عزيزًا ومات شريفًا ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. فاستمدوها أيها المسلمون من ربكم وادعوا إليه من تنكب عن سبيل الاستقامة.

إن المسلمين لما تركوا الدعوة إلى الله وانصرفوا إلى شهواتهم مكن الله منهم عدوهم فأذلهم واستباح أموالهم وأعراضهم وسامهم كما تسام البهائم العجماوات؛ وذلك جزاء من تشبه بالبهائم في اتباع الشهوات، وعصى رب الأرض والسموات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

ولا عجب أن يسلط الله تعالى على المسلمين من يذلهم ويستعبدهم لما تركوا الدعوة إلى الله والعمل الصالح، فقد سلط الكفار المشركين على من كانوا أبر منهم قلوبًا وأفضل إيمانًا وأعظم شجاعة وهم مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فأوقعوا فيهم القتل والذبح، حتى بقروا بطن حمزة عم رسول الله ﷺ؛ وما ذلك إلا لأنهم خالفوا أمرًا واحدًا من أوامر رسول الله ﷺ حيث قال لهم: «**لا تبرحوا أماكنكم غلبنا أم غُلبنا**»[1] فغلبوا المشركين أولًا ثم تركوا أماكنهم يجمعون الغنائم، فلما فعلوا ذلك انقلب عليهم المشركون ثانية وكان ما كان، فكيف بمن خالفوا الدين كله أصولًا وفروعًا وفعلوا جميع المنهيات وعصوا جميع الأوامر حتى ما كان منها متعلقًا بنظام الدنيا والسيادة فيها؟!.

وإن من أعظم المصائب، وأشد الكوارث نسيان الغياث الحق عند حلول الخطوب وفجاءة النقم، وأذل من الذل أن تطلب الحرية ممن عزه في إذلالك، وسعادته في إشقائك.

إن المسلمين لا يحيون حياة طيبة، ولا ينالون العزة والسيادة إلا بأن يدعوا أنفسهم أولًا إلى الله، فإذا أفردوه بالإلهية وأبوا أن يكونوا لغيره عبيدًا، وتواصوا على ذلك وصبروا عليه لم يلبثوا عشية أو ضحاها حتى يحيا منهم من حي عزيزًا، ويموت منهم من يموت شهيدًا شريفًا إن شاء الله تعالى.

* * *

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٧٧.

الدعوة إلى الله تعالى(١)

كيف تكون وعلى أيِّ أساس تقوم؟

[٢]

إن الدعوة إلى الله من أسهل الأمور وأشقها على النفوس، فلذا ينبغي أن نبين كيف تكون.

ووجه المشقة فيها ما يلاقيه الداعي من أذى المدعوين، واستهدافه لتقولاتهم ومعاداتهم واحتياجه إلى معرفة طبائع النفوس وما يليق بها، والطرق الحكيمة التي يسلكها لبلوغ غايته وجذب الناس إلى دعوته، وإنقاذهم من مصايد الشيطان، وشفائهم من أمراض الشهوات وعلل الشبهات، واستعمال الرفق في موضعه والبرهان عند أهله.

وأما وجه السهولة فيها فلأنها تتضمن ذكر الله تعالى، وبذكره تطمئن القلوب، وموعود عليها بالنصر في غير ما آية من كلام الله تعالى وغير ما حديث من سنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، الآية ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] الآية ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] الآية – ولأن الداعي لله تعالى يجد من الآيات والأدلة والبراهين على صحة الدعوى ما لم يجده داع لغير الله ﷻ.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولأن الفطر مستقر فيها معرفة الله تعالى بآياته ونعمه.

أما كيف تكون الدعوة إلى الله تعالى فإنك تجده في القرآن الحكيم

(١) مجلة الإصلاح – العدد الثالث – ٣٠/ ٣/ ١٣٤٧هـ.

وسيرة النبي على أفضل الصلاة وأتم التسليم، تجده في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فصلت: ٣٣- ٣٥] ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩- ٢٠٠]، وفي آية ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦].

وفي قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ [النمل: ٦٩] الآية ﴿ ۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ... إلخ.

هذا تعليم الله لرسوله في موضع الرفق والملاينة.

وقوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢] في موضع المخاشنة والوعيد والتهديد.

ولا ريب أن من الناس من ينقاد بالرفق ويسترقه اللين ويعطفه العتاب، ومنهم من قست قلوبهم وغلظت طباعهم فلا يؤثر فيهم إلا الكلام الشديد كالتهديد والوعيد، أو لمعان الحديد وقطع الوريد، على أن الداعي إلى الله لا يمتشق حسامًا، ولا يكره إنسانًا، بل يحبب الله إلى عباده ويعرفهم به

ويقودهم بالحسنى إليه، وإنما يضطر إلى امتشاق الحسام وإشراع الرمح والسنان إذا صودر في دعوته واعتدي على دينه ووقفت شياطين الإنس تحول بينه وبين هداية عباد الله إلى الله، وإقامة ما أمر الله به من العدل والإحسان وإزالة ما نهى عنه من الظلم والعدوان وعبادة الأوثان؛ مما يجعل الإنسان الذي كرمه الله أخس أنواع الحيوان.

ولقد لبث رسول الله ﷺ في مكة بين قومه ثلاث عشرة سنة يدعوهم باللين والرفق وهم يؤذونه ويؤذون أصحابه بما قدروا عليه حتى هاجروا غير مرة، ولم يكف المشركين ذلك حتى بيتوا قتل النبي ﷺ آخر الأمر، ولولا أن الله أمره بالهجرة منها لبقي صابرًا محتسبًا.

فالدعوة إلى الله تكون بالرفق واللين ومقابلة السيئة بالحسنة، والإعراض عن الجاهلين وتحمل أذاهم بالصبر الجميل والدعاء لهم بالهداية إلى أقوم سبيل ولولا أن الرفق واللين في الدعوة من أسباب نجاحها وأنهما من الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] لما أمر موسى عليه السلام أن يقول لفرعون حين أمره بالتوجه إليه ودعوته إلى الله ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

فالقول باللين يشرح الصدر، ويفسح للنفس مجالًا للتفكر، ويرغبها في القبول.

وأما الشدة فهي مدعاة للتنفير والإعراض عن الداعي، وسبب في صرفه عن الدعوة والاشتغال بما أثار من شر كان كامنًا وفتنة كانت نائمة، ومضاعفة مرض كان على وشك الشفاء لو صادف طبيبًا ماهرًا وسائسًا حكيمًا.

فينبغي للداعي إلى الله أن يكون أوسع حلمًا ممن يدعوه، وأصبر على أذى يلاقيه، وأن يكون سخيًا في الحق، موطنًا نفسه على الشهادة في سبيل الله،

بادئًا من يدعوهم بما هو الأهم، ويجب أن يكون عاملًا بما يدعو إليه وإلا كان عمله المخالف لقوله حجة عليه ومناقضًا لما يدعو إليه.

إن الدعوة إلى الله لا تقوم إلا على أساس التوحيد وإخلاص الداعي لله، فأما إذا كان غير مخلص لم يثمر عمله، وإن أثمر في الدنيا لم يكن له عليه ثواب في الآخرة.

*　　*　　*

الدعوة إلى الله(١)

[٣]

الدعوة إلى الله تستلزم جهادًا، وصبرًا من الداعي، وحلمًا ورفقًا بالمدعو.

وهذه أركان الدعوة، فإذا جاهد ولم يصبر لم يُنصر، وإن صبر ولم يكن حليمًا رفيقًا بالناس لم يظفر بالنجاح، وربما كان ضرره أكثر من نفعه، وتنفيره أكثر من تأليفه، وإفساده أكبر من إصلاحه.

ويشترط في الداعي إلى الله أن يكون على بصيرة مما يدعو إليه عاملًا به، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، ومن قوله عز من قائل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله تعالى في قصة شعيب حاكيًا عنه ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وقوله ﷻ لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] أي: أول المنقادين المطيعين لما أدعوكم إليه.

فأما إذا كان الداعي على غير بصيرة فيما يدعو إليه فقد ضل وأضل. وكذلك إذا خالف إلى ما ينهى عنه أي تخلف عن رُفقة المطيعين وخالفهم ما نهاهم عنه.

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد الخامس- ١/ ٥/ ١٣٤٧هـ.

فالقائل قولًا لا تصدقه فعاله مخذول مرذول ممقوت عند الله وعند الناس، معدود في زمرة المنافقين المرائين، ومن الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

وإنك لتجد كثيرًا من الناس كذلك وكما قال الشاعر:

إذا ندبوا للقول قالوا فأحسنوا ... ولكن حسن القول خالفه الفعل

وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] الآيات.

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

ومعنى ذلك والله أعلم أن قوله مخالف لما في قلبه، وأنه إذا تكلم في الدنيا أي في وصفها وشأنها أعجبك كلامه لوصفه إياها بما يطابق الحقيقة من فنائها وعدم بقائها وأنها كعجوز شمطاء تزينت للناس بمتاعها وزخرفتها، وبدت لهم في ثياب الفتيات تغرهم بالآمال وتخدعهم بمزيف الجمال، وهو ألد الخصام أي شديد الخصومة في الباطل إن عرض له منها عارض أو بدت له فيها أية منفعة، فتراه مثلًا يؤول الآيات لأجل حطامها، ويضعف الأحاديث طمعًا في وصلها، ويحل الشيء عامًا ويحرمه عامًا، وإن وصف لك المتقين خلته منهم، وإن ذم لك المنافقين حسبته من أشد الناس عداوة لهم، ولكنك إذا بلوت أخباره، ورأيت فعاله، عجبت من أحواله، ومخالفة أفعاله لأقواله. فمثل هذا لا يصلح للدعوة إلى الله ولا يكون من أهلها. ولكنه إذا وجد في هذا الزمان يعد من أئمة الإصلاح ويعطى أضخم ألقاب العلم والفضل، وأشرف أسماء السيادة والنبل والذكاء والعقل!!

حق على علماء المسلمين في كل بلد وقطر أو يقوموا متضافرين

متناصحين داعين إلى الله، ناعين على أهل البدع الشركية بدعهم، مقيمين عليهم الحجة، رافعين لهم لواء السنة، فإنهم متى رأوا ذلك اللواء في يد ثقاة الأمة انضووا إليه ولحقوا به وكانوا تحت ظله فكانوا من المصلحين.

فليستعذ العلماء العارفون بالتوحيد من الجبن وحب الدنيا والحرص عليها ويقيموا على قدم وساق بادئين بما هو الأهم كما في حديث معاذ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم أن عليهم خمس صلوات**» الحديث[1].

فواجب على العلماء العارفين معنى الشهادتين أن يدعوا الناس إليهما حتى يحققوا العمل بهما إيمانًا بالله ورسوله وكفرًا بالطواغيت، واجب على العلماء أن يعملوا أمام العوام بما يعلمون ليكونوا لهم خير قدوة يفهمون بها الكتاب والسنة فهمًا عمليًّا، كما كان النبي ﷺ يعلم الناس بالعمل. والأحاديث الدالة على ذلك في الصحيحين وغيرهما، وكأن علماء التربية في هذا العصر وقفوا على كيفية تعليم الرسول ﷺ فاقتدوا به وأصبحوا لا يدخل مدرس المادة من العلم إلا أخذ معه عدة تمثيلية وتصويرية، إن لم يمكنه عمل الشيء بنفسه أو إيجاده تحت حواس المتعلمين، كما في تعليم الكيمياء والطبيعة وغيرهما من العلوم.

وبعدُ، فمتى يعود المسلمون إلى دينهم ويعملون بكتاب ربهم وسنة نبيهم.

ليعود إليهم عزهم وسيادتهم وملكهم؟

سؤال يخالج كل ذي ضمير حي وعقل سليم.

والجواب عليه: إذا وجد دعاة يدعونهم إلى الله بالرفق، ويبينون لهم

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٤٥٨، ٧٣٧٢)، ومسلم (١٩).

خطأهم في العقائد ويبصرونهم بالعواقب ويضربون لهم الأمثال، ويتلون عليهم قصص الأمم الغابرة في القرآن، ويخطبون في المساجد والمجتمعات، وأنى لنا بأولئك الدعاة الذين توفرت فيهم شروط الدعوة وأنابوا إلى الله وأخلصوا له؟

أقول – والحزن ملء فؤادي –: إنهم قليلون، بل هو أقل من القليل.

نسأل الله أن يكثرهم في المسلمين، وأن يلهم الأغنياء والملوك والأمراء البذل في هذا السبيل وإعداد طائفة من الدعاة والمرشدين.

كما أسأله أن يوفقهم للأخذ بأحكام الشريعة الغراء ويقيموا الحدود فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. والسلام.

* * *